

الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وقيمة كتابه «الصحيح» (١)

محمود الأرناؤوط

حياة الإمام الكبير محمد بن إسماعيل البخاري، إمام المحدثين، حافلة بالجدّ والدأب والسهرة **كانت** والحرص على تنقية السنة النبوية المطهرة من الضعيف والموضوع، فكان كتابه "الصحيح" أصحّ كتب السنة قاطبة، وأطبق على علو منزلته سلف الأمة وخلفها، وكتب الكثيرون في سيرته ترجمات مطولة ومختصرة حسب دواعي التأليف والكتابة. ويكاد لا يخلو كتاب من كتب التراجم من التطرق إلى سيرته بإسهاب قلّ نظيره. وقد لقب البخاري عند أهل الحديث من علماء المسلمين بأمر المؤمنين وكفى بهذا اللقب دليلاً على علو منزلته في أعين أهل العلم من المسلمين بشكل خاص وفي أعين المسلمين عامة.

ولنتنقل الآن للحديث عن سيرة الإمام البخاري باختصار يتناسب والوقت المخصص لإلقاء هذا البحث وهو وقت ضيق لا يتسع للكلام بإسهاب عن جانب واحد من جوانب هذه الشخصية الفذة، فأقول:

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الملقب بـ (برذزبة) ومعنى (برذزبة) بالفارسية هو (الزارع) قاله الحافظ ابن حجر العسقلاني في مقدمته لكتابه الشهير "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" ص (٤٧٧).

ولد يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة (١٩٤) هـ ببخارى، وألهم حفظ الحديث وهو في الكتاب ولم يتجاوز العاشرة من عمره، ثم خرج من الكتاب وجعل يتردد إلى بعض علماء بلده ويستمع إلى دروسهم، ولما بلغ السادسة عشرة حفظ كتب ابن المبارك ووكيع، ثم قصد برفقة أمه وأخيه الديار الحجازية لأداء المناسك وإسقاط فرض الحج عن نفسه وعن والدته وأخيه، ولم يرافقه والده إسماعيل في الرحلة لوفاته قبل سنوات قليلة. ثم كانت له رحلات عدة إلى

(١) عقدت في الفترة ما بين (١٨-٢٢) تشرين الأول من عام ١٩٩٧ ندوة دولية في جمهورية أوزبكستان للاحتفال بمرور (٢٥٠٠) عام على إنشاء مدينتي بخارى وخيوة، وقد دعي الكاتب لحضور الندوة المذكورة، وألقى هذا البحث فيها ظهر يوم ١٩ تشرين الأول، وكان الوقت المخصص لإلقاء البحث خمس عشرة دقيقة شأنه شأن الأبحاث الأخرى التي أقيمت في الندوة.

❖❖❖ التراجيع العربي ❖❖❖

الشام ومصر والجزيرة العربية مرتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقام بالحجاز ستة أعوام، وقال: لا أحصي كم دخلت إلى الكوفة وبغداد مع المحدثين.

وقد كتب الإمام البخاري عن ألف وثمانين شيخاً ليس فيهم إلا صاحب حديث، وأعلى طبقات شيوخه من حدثه عن التابعين، وكان يقول: لا يكون المحدث كاملاً حتى يكتب عن من هو فوقه، وعن من هو مثله، وعن من هو دونه. ولما سمع من رفقائه في الطلب، ومن قوم هم في عداد طلبته في السن والإسناد، سمع منهم للفائدة.

وبدأ البخاري بالتحديث والإقراء وهو في سن مبكرة.

قال أبو بكر بن أبي عياش، ويقال له أيضاً أبو بكر بن أبي عتاب الأعيين كما في "اللباب في تهذيب الأنساب" للإمام عز الدين بن الأثير وفي "تذكرة الحفاظ" للإمام الذهبي:

- كتبنا عن محمد بن إسماعيل البخاري وهو أمرد على باب محمد بن يوسف الفريابي، وكان موت الفريابي سنة (٢١٢) هـ، وكانت سن البخاري إذ ذاك نحواً من ثمانية عشر عاماً أو دونها، وقد اشتهر رحمه الله تعالى بسعة الحفظ للمتون والأسانيد، وقد جرت له قصة شهيرة في امتحانه بسعة روى تفاصيلها محمد بن الأزهر السجستاني حيث يقول: كنت في مجلس سليمان بن حرب بن بجيل الأزدي الواشجي قاضي أهل البصرة في حينها والبخاري معنا يسمع ولا يكتب، فقبل لبعضهم: ما له لا يكتب؟ فقال: يرجع إلى بخاري ويكتب من حفظه.

وروى قصة أخرى أغرب منها الإمام الحافظ ابن عدي صاحب كتاب "الكامل في الجرح والتعديل" حيث يقول: سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون: إن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث، يعني بعد أن طبقت شهرته الآفاق، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه، فعمدوا إلى مئة حديث فقلبوها متونها وأسانيد، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوها إلى عشرة أنفس، لكل رجل عشرة أحاديث، وأمرهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري، وأخذوا عليه الموعد للمجلس، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم، ومن البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله، انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث، فقال البخاري: لا أعرفه، فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحد حتى فرغ والبخاري يقول: لا أعرفه، وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: فهم الرجل، أي عرف ما دُبر له. ومن كان لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ. ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة، فقال البخاري: لا أعرفه، فسأله عن آخر: فقال: لا أعرفه، فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول: لا أعرفه، ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة، حتى إذا فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة، والبخاري لا يزيدهم على قوله: لا أعرفه، علم أنهم قد فرغوا من إلقاء الأحاديث المقلوبة عليه، التفت إلى الأول فقال: أما حديثك الأول فقلت كذا وصوابه كذا، وحديثك

❖❖❖ القراء العربي ❖❖❖

الثاني كذا وصوابه كذا، والثالث والرابع على الولاء، حتى أتى على تمام العشرة، فرد كل متن إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك، فأقرّ الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: هنا- أي في هذه القصة- يخضع للبخاري، فما العجب من ردّه الخطأ إلى الصواب، فإنه كان حافظاً، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة.

وكان البخاري على خلق كريم لا يغتاب الناس ولا يقول فيهم إلا خيراً.

وكان يقول: ما اغتبت أحداً قط منذ علمت أن الغيبة حرام.

وكان- رحمه الله- زاهداً في الدنيا يأخذ منها ما يكفيه من غير إسراف.

وكان يقرأ القرآن ويداوم على قراءته، يقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث من القرآن فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال، وكان يختم بالنهار في كل يوم ختمة، وكان يصلي في وقت السحر ثلاث عشرة ركعة يوتر منها بواحدة. مات سنة (٢٥٦) هـ وهو ابن اثنتين وستين سنة ودفن بخرتلك فيما قيل، والله تعالى أعلم.

وقد امتدحه كل من ترجم له من العلماء ممن جاء بعده قديمهم وحديثهم، ووصفوه بأوصاف ونعوت ما قيلت في غيره إلا فيما ندر- وهو للحق والصدق والأمانة من أعاجيب الزمن، جزاه الله عن المسلمين خير الجزاء ما دام في الدنيا من ينطق بالضاد ويتبع شريعة محمد عليه الصلاة والسلام.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وأما كتابه "الصحيح" فهو أصح كتاب فيما بين أيدي المسلمين بعد كتاب الله عز وجل في رأي المحدثين.

قال الإمام النووي في "التقريب" وقبله ابن الصلاح في "علوم الحديث" وكتاباهما- يعني البخاري ومسلم- أصح الكتب بعد كتاب الله عز وجل، لأنهما أول من صنف في الصحيح المجرد في صدر الإسلام، وكان السابق البخاري وتبعه مسلم.

وقد صنف البخاري كتابه "الصحيح" من ست مئة ألف حديث مسموعة، وقال: ما وضعت فيه حديثاً إلا صليت لله تعالى ركعتين.

وقد سمى "صحيحه": "الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله- صلى الله عليه وسلم- وسننه وأيامه" وهذا هو اسمه الصحيح.

وقال العلامة الشيخ جمال الدين القاسمي الدمشقي: وينبغي لكل من ينسخ "الصحيح" يقصد "صحيح البخاري" أو يطبعه أن يعنونه بتسمية المؤلف محافظة على الإعلام وتحرساً من الاقتضاب فيما لا محل له من الإعراب.

وقد عرض البخاري "صحيحه" على أئمة العلم في عصره بعد أن فرغ من تأليفه وتصنيفه كأحمد

ابن حنبل، ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وغيرهم، فاستحسنوه وشهدوا له بالصحة إلا في أربعة أحاديث، قال العقيلي: والقول فيها قول البخاري وهي صحيحة، فهؤلاء الذين استحسنوه كانوا من كبار رجال الحديث النبوي في القرن الثالث الهجري أحد القرون التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم" ومع ذلك فقد أصبحنا نسمع ونقرأ في السنوات الأخيرة أشياء من تعليقات بعض المتعلقين بأذيال العلم من طلبة العلم بحق هذا الإمام العظيم و"صحيحه" لا تليق بالمعاصرين من كبار العلماء فكيف بمن أطبقت الأمة على فضله وفضل كتابه كالإمام البخاري وصار البعض ممن لا علم لديهم ولا خلق أهل العلم وإنصافهم يكتبون في هوامش مؤلفاتهم أو يلقون ذلك على طلبة العلم من المبتدئين: "رواه البخاري وصححه الألباني" ويقصدون بذلك المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني^(١) وذلك مما لا يصح قوله أو كتابته أو إشاعته بين الناس بحال من الأحوال، لأن الألباني وغيره ممن اشتهر بالعلم والدراية بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من العلماء في هذا العصر وأصبحوا مراجع للناس في شؤون الحديث النبوي لا يرضون عن مثل هذا الكلام بأي حال، ومن يرضى عنه منهم فهو أثم عند الله تعالى يوم القيامة، فإن البخاري - رحمه الله - من رجال القرن الثالث الهجري الذي شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بصلاح أهله، فكيف بمن كان منهم في منزلة البخاري الذي وقف حياته لخدمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وجمعه من أفواه الرواة؟ ولينق الله من يتكلم فيما لا يعلم بحق هذا الإمام الجليل وأمثاله ممن شيدوا قلاع العلم التي نقياً في ظلالها ونستمد زادنا العلمي والثقافي من خلالها، والسلام عليكم.

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

□□□

^(١) وذلك مبالغه منهم في مدح الرجل وتحمله ما لا يحتمل برفعه إلى منزلة لا يرتقي إليها أحد من علماء الحديث النبوي المعاصرين.